التعددية الحضارية والتعارف والتدافع

مدحت ماهر الليثي

التعددية تنوع مؤسس على "تميز .. وخصوصية"، تُقابِل "الوحدة – والجامع"؛ لكنها لا تعني بالضرورة التشرذم والقطيعة ولا التمزق. فبدون الوحدة الجامعة لا يمكن تصور التنوّع والتعدد والخصوصية والتميز. والأمر بعكسه صحيح. وتعددية الحضارات والأمم والأديان والثقافات والأفكار أمر واقع لا يُنكر، لكن الرؤية الإسلامية تؤصل لهذه التعددية الحضارية تأصيلًا متميزًا، يتميز بإنسانيته وفطريته وتعايشه مع الآخر.

فالرؤية الإسلامية تقصر "الواحدية" على الذات الإلهية والحق الذي من عندها، فيما ترى المخلوقاتِ أزواجًا، والمساعي أشتاتًا، وأن لكلٍ وجهةً هو مُوَلِّيها ... إن الرؤية الإسلامية الثابتة ثبات الاعتقاد تجعل من التعددية والتنوع "سُنّة" من سُنَن الله –سبحانه وتعالى– في الخلق والمخلوقات، بل هي آية من آياته، ليست فقط في عالم الأكوان والطبيعيات، بل في الاجتماع الإنساني والعمران البشري، وفي شئون الأمم والحضارات.

إن الوَسَطية الجامعة التي يُختص بها الإسلام وحضارته وأمته (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (سورة البقرة: آية 143)، هي وَسَطية العدل والميزان والتوازن، الواقفة بين طرفي غُلُو؛ هما طرف الإفراط وطرف التفريط. ومن ثَمَّ فإن التعددية الموزونة بميزان هذه الرؤية الوَسَطية لابد أن تعني تميزًا لفرقاء يجمعهم جامع، وخصوصياتٍ متنوعةً في إطار ثوابت وَحْدة، الأمر الذي يجعل هذه التعددية تنمية ونماءً للخصوصيات، وحفظًا وحماية للهويات والذاتيات.

ففي القوميات والجنسيات واللغات تعددية وتنوع هما آية من آيات الله: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) (سورة الروم: آية 22)، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (سورة الحجرات آية13)، هذه التعددية يلم شعتها جامع الإنسان والإنسانية، وقانون التعارف الحضاري والتواصل الأممي.

وتعددية الشرائع والمناهج التي هي أساس تعدد الحضارات وتنوعها سُنَّة إلهية تُحفِّز على التنافس في الخيرات والاستباق في الطيبات، والتدافع بين الحضارات على دروب الارتقاء والإبداع. فالتعددية هي الحافز على ابتلاءات المنافسة والاستباق بين الفرقاء المتمايزين في الشرائع والمناهج والحضارات.

وقد أشار القرآن إلى وحدة الملة والدين وتعددية الشرائع: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا

فِيهِ) (سورة الشورى آية 13)، و"الأنبياء إخوة لعلّات، دينهم واحد وأمهاتهم شتى" حديث متفق عليه. وقال –تعالى– (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (سورة المائدة آية 48).

وقد قدمت الحضارة الإسلامية نموذجًا فريدًا في حفظ التعدديات غير المتناقضة، وحفظها من التعارض الذي يؤول للتصارع، بل القدرة العالية على حلّ التناقضات حال وقوعها، بآليات ومقاصد لا تذهب إلى إلغاء الآخر أو نفيه، ولا إلى القطيعة عنه والانغلاق دونه بمخاصمته. ومن ثم يتكامل مع مفهوم "التعدد الحضاري" في الرؤية الإسلامية مفاهيم التعارف الحضاري والتدافع الحضاري والتوازن الحضاري والتداول الحضاري.

وبالنسبة لمفهوم "التعارف الحضاري": فلقد تأكد أقر الإسلام –بكل جلاء– اختلاف الناس وتنوعهم، بل جعل ذلك سُنَّة إلهية قاضية، (وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) (سورة هود: آية 118)، ونسب هذه الحال إلى الجعل الإلهي والمشيئة العليا، وأن وراءها قصدًا ولها غاية، ألا وهي أن يتعارف الناس والأمم. إن اختلاف الناس شعوبًا وقبائل، وجماعات وأممًا، وطوائف وقوميات ...إلخ، لم يكن لتنعقد بينهم مصارعة حتمية أو مقاتلة مفروضة، بل ليتعارفوا ويتواصلوا، ويسهل التعايش فيما بينهم.

لقد فهم الفكر الإسلامي ذلك من روح دينه ونصوصه التي منها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (سورة الحجرات: آية 13)، وإن هذا التعارف يجعل كل فريق ينتفع بما عند الآخر، فلا تقف الحدود الإقليمية أو العرقية العنصرية أو اللغوية أو الطبقية سدودًا وقيودًا على التبادل والتعارف الحضاري.

إن التعارف الحضاري يرتبط بمبدأ الأصل البشري الواحد: (إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى) (الحجرات: 13)، وأن القرآن الكريم يوجه خطابًا يضم الناس مسلمهم وغير مسلمهم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ).

وهذا التعارف يقرر المعرفة المتبادلة، وينفي التفاضل بالعنصر أو ما يسمى "بالتفرقة العنصرية" وبالنسبة الطينية، أو بالأرض أو بأي عامل غير القيمة السامقة التي سماها القرآن: (التَّقْوَى)؛ وهي جماع الإيمان والعمل الصالح.

وهذا التعارف في أصول الفقه الحضاري الإسلامي يوجه نحو تكاليف حضارية من النوع الكلي؛ تكاليف التواصل في كل مجالاته الثقافية والسياسية والاقتصادية، والتلاقي والتعاون على البرّ والتقوى لا على الإثم والعدوان، الأمر الذي تبرز فيه الأخلاقية الإسلامية في القِسط

والبر بغير المسلمين، وفي جوّ من الأمن والأمان يتيح للدعوة الإسلامية أن تمضي، ويتيح للمخالف أن يقف منها موقفًا حرًّا، لا قهر فيه ولا إكراه، ويتيح للمسلم أن يتزوج من غير المسلمين، ويتيح للجميع أن يأكل بعضهم من طعام بعض، وأن يتحاوروا في كل الشئون، بل يتجادلوا بالتي هي أحسن، لا بغيرها: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (سورة العنكبوت: آية 46).

إن سنة التعارف الحضاري هي التي تكفل للبشر أن يعرف بعضهم بعضًا، وأن يتعرف بعضهم على ما لدى الآخر من قيم وأفكار، من مشترك ومن خصوصيات، وأن تبقى العلاقة – ضمن المنظومة الإسلامية– قائمة على احترام الحرمات، وصون الكرامات، والقسط في كل المعاملات، بل وزيادة البر والإحسان؛ تحقيقًا لمقاصد عليا أقرتها الشريعة الإسلامية.

والخطاب التعارفي في القرآن ينظر إلى الناس بكافة تنوعاتهم واختلافاتهم في الألسنة والألوان وتميزاتهم في الغايات والمصالح، والقيم والأفكار، لكنه ينظر إليهم أيضًا وقد جاءوا جميعًا من نفس واحدة أو من نفسيْن (ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ) بوصفها حقيقة تقرّ بها كل الأديان والمذاهب غير الملحدة. ويرى الفكر الإسلامي المعاصر أن الغرض من ذلك أن يدرك (كل الناس) هذه الحقيقة، وأن يتعاملوا معها بحسبانها قاعدة إنسانية وأخلاقية، في نظرتهم لأنفسهم، وفي نظرة كل حضارة إلى غيرها. فالتنوع بين الناس وتكاثرهم، والأشكال التنظيمية الوطنية الإقليمية التي يتوزعون بها في أرجاء الأرض لا تعني تناحرهم أو أن تتقطع بينهم السبل والأسباب، وأن تعيش كل حضارة في عزلة وانقطاع، أو أن يتصادموا لمجرد ذلك، أو من أجل العوامل الأرضية كالثروات والعلو إفسادًا في الأرض.

والتعارف الحضاري ينفي "الانغلاق الحضاري"، وينفي "التصادم" لغير ما سبب، وينفي "الصراع الحضاري" لغايات ضئيلة من قبيل الهيمنة على العالم، والسعي لرسم صورة هذا العالم على نمط هو من خصوصيات أمة أو حضارة معينة.

إن التعارف الحضاري يثبت أن جميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالنسبة الدينية وهي طاعة الله ومتابعة رسوله (صلى الله عليه وسلم). قد يتميز الناس (عن) بعضهم البعض لعامل ماديٍّ أو ثقافي ما، لكن ذلك لا يكون سببًا ضروريًا لتمايزهم (على) بعضهم البعض. إن الحضارة الإسلامية وأصولها –بهذا المفهوم– تنادي الناس تناديًا حضاريًا: يا أيها الموزعون في الأرض شعوبًا وأممًا وطوائف وجماعاتٍ، إنكم من أصل واحد، فلا يفخر أحد على أحد، ولا يبغِ أحد على أحد، اجتمعوا في نظام عالمي تحت راية واحدة: لا راية جنس، ولا راية لون، ولا راية لغة، ولا راية المصالح العاجلة، ولا راية القوة الباطرة، إنما تحت راية الحق الذي تقبله الفطرة وتسعد في ظله الروح: راية الله.

أما بالنسبة لمفهوم التدافع الحضاري: فواضح أن التعدد والاختلاف والتنوع بوصفه سُنَّة إلهية ومبدءًا من مبادئ الرؤية الحضارية الإسلامية، قد يتحول من اختلاف تنوع إلى اختلاف تضاد وتناقض، وحينئذٍ تتحرك الرؤية الإسلامية صوب حل التناقض بكل ما لديها من أدوات وآليات لا تَكِرُّ على أسسها بالإبطال. فمن السنن الثابتة حفظ التنوعات، وحفظ الخصوصيات، ومن ثم فلا سبيل إلى إلغاء الآخر أو نفيه أو صَرْعه أو إبادته، ومن ثم فلا سبيل إلى اعتماد النهج الصراعي الإهلاكي فيما يسمى بصراع الحضارات أو صراع القوى العالمية. إنما السبيل هو الذي أصَّل له القرآن الكريم واعتمده سُنَّة من سُنَن الله في الخلق، الحافظة والحافزة، هي سنة التدافع الحضاري.

فبدلًا من الصراع سبيلًا لحل التناقضات بين فرقاء التعددية، زكَّى الإسلام "سبيل التدافع" الذي لا يتغيَّا "نفي الآخر" وإنما تعديل المواقع، ذلك من المعايير الإسلامية الضابطة الجامعة الحاكمة، فهو حراك لا إهلاك، إنه الدفع بالتي هي أحسن: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (سورة فصلت: آية 34)، إنه دفع يحوَّل من موقف العداوة إلى موقف الولي الحميم، دَفْعٌ من حال السيئة إلى حال الحَسَنِة والحسُنْى والإحْسان، لا إلى حال الفناء والتوحد مع الذات، والإلحاق والهيمنة وما شابه.

إن هذا التدافع هو الذي حفظ الأرض من الفساد، وهو من فضل الله ليس على المسلمين وحدهم وإنما على العالمين: (وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) (سورة البقرة: آية 251).

وفي هذا الإطار نفهم الدَفْع والدِفَاع والتدافع كعمليات حضارية كبرى، وفي طيها وسيلة القتال حين لا يكون إلا القتال لتعديل مواقف المشركين من الشرك إلى التوحيد، ومن الاعتداء إلى احترام الحرمات والارتداع عن إيذاء الناس. ومن هنا نجد أن القرآن يؤكد دفاع الله عن المؤمنين (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) (سورة الحج: آية 38)، ثم يأذن للمظلومين بمقاتلة الظالمين. ولأنه سبحانه قَدَّر لهذا الظلم أن يقع في مُلكه، فقد قدَّر عليه القتال، ونبههم إلى ما في هذا القَدَر والتقدير من سُنّة عظيمة ومِنّة كريمة.

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا...) (سورة الحج: آية 40)، إلى آخر الآيات من سورة الحج.

هذا التدافع على ما يبدو فيه من اشتباه بالتصارع، إنما هو شديد التميز عنه، إنه يدفع بالتي هي أحسن، ويدافع عن حال الظلم، ويدفع الآخر لتغيير موقفه المستنكَر، إنه أمر بمعروف ونهي عن منكر، إنه تفاعل في سُنة تحفظ الدنيا من الترهل والتكاسل، وتحفظ

النفوس من القعود والتقاعس، إنه تنافس في تحصيل القوة بكل معانيها وتجلياتها، ليس للاستكبار والتعالي، إنما للحيلولة دون فساد الأرض، وتهديم صوامع الرهبان، وبيع المصلين، وصلوات الأحبار، ومساجد المسلمين لرب العالمين. إنه تدافع لصالح، الذين يسكنون "الأرض"، "لصالح العالمين".

من هذا كان لابد أن يقع التعارف بين المسلم والعالمين، التعارف بوصفه منطلقًا للتواصل والتواصي، هذا التعارف لا يتم بغير حوار وجدال، وسجال حضاري وتناظر ثقافي، يحقق المقاصد العليا، ويجعل الدعوة نظام حياة ونهج حضارة مستديمًا. ولهذا لهج القرآن بدعوة غير المسلمين لهذا الحوار الحضاري السجالي المستقيم على شرعة ومنهاج، والمنضبط بأخلاقيات جدل راقية، والطارح لكل الأسئلة المعلقة في المسافة البينية الواقعة بين حضارة الإسلام وسائر الحضارات، والهادف للوصول إلى كلمة سواء:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)- (آل عمران: الآية64).

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ – (المائدة: الآية 59).

(قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ) (سورة البقرة: آية 139).

(قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)- (سورة البقرة: الآية 111).

إن هذا الحوار لا يقف عند حدود ما يسمى اليوم بحوار الأديان الذي يصوره البعض تصويرات مغلوطة بأسماء توحيد الأديان وزمالتها وما إلى ذلك، إنه حوار بين القيم العليا التي تمثلها كل حضارة، حوار غير دخيل على طبيعة الحضارة الإسلامية التي جاء دينها ينادي الأقوام من كل حدب وصوب، ويراسل الدول والشعوب، ويجعل من التعارف أرضية القيم العالمية، ومن الحوار أداته الكبرى

إن الحوار بين أتباع الحضارات المختلفة –في المنظور الإسلامي- هو سُنة الأنبياء (عليهم السلام) الذين حاوروا الآخر المخالف وأطالوا الجدال معه حتى قال قائلهم: (قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) (سورة هود: الآية 32). ويأخذ هذا الحوار مساحة واسعة من القرآن، حتى ليصح وصفه بأنه كتاب حوار بالأساس: حوار إبراهيم مع النمرود، حوارات موسى مع فرعون ثم مع مارقة قومه، حوار عيسى مع بني إسرائيل ثم مع الحواريين، حوارات هود وصالح وشعيب مع أقوامهم،... غير الحوار الأعظم الدائر بين الرب تعالى وبين الإنسان المؤمن وغير المؤمن.

كذلك تشبعت سنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالصفة الحوارية، سواء ما يمكن أن ندعوه بالحوار الداخلي أو البيني، أو ذلك الحوار مع الآخر الخارجي (نواة الحوار الحضاري). فالحوار خصيصة لصيقة بالإسلام منذ انبعث نوره في مكة المكرمة؛ حاور رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الخواص والعوام، وشرع لهذا الحوار آدابا وقيما ترقى على كل نظير، شرع الاستماع والإنصات إلى الغير، شرع الأدب الرفيع في استقبال أسئلة الآخر على محمل الجد حتى ولو كان هذا الآخر هازئا، وشرع منهاج الحجة والبرهان لا العسف والطغيان.

وعلى منوال الحوار القرآني والحوار النبوي، سارت الحضارة الإسلامية تفتح ميادين الاحتكاك والتواصل، وقنوات الحوار والجدال الحضاري، بلا مواربة ولا تضييق. ففي كنف هذه الحضارة عاشت أقوام وشعوب، وملل ونحل، وطوائف وطبقات،... عاشت وتعايشت، ودرست وتدارست، حتى شاع في قرون الإسلام حوارات المسلمين مع علماء المسيحية على وجه الخصوص، ومع كافة أصحاب الأفكار والآراء الفلسفية والعقدية المتصلين بالحضارة الإسلامية.

في مناخ من التسامح والانفتاح، والثقة بالنفس والتشجيع على التدارس المشترك والتساجل، وتبادل المعارف والأفكار، ظهر "علم الكلام" عند المسلمين مختصا بأهم مكونات الحضارة الإسلامية (العقيدة)، للأخذ والرد مع المخالفين بأدلة عقلية ووفق منطق جامع وبناء على تمهيدات إنسانية مشتركة.

هذا الحوار الحضاري الذي أصلت له الحضارة الإسلامية وضمنته منظومة قيمها العليا ومقاصدها الكلية هو الذي ينهض جانب من الفكر الإسلامي اليوم لإبرازه وتقديمه بديلا عن دعوات وصرخات شاذة ترفع شارات "الصدام بين الحضارات والصراع بين الثقافات، والحروب بين الأديان"، وما شاكل.

إن الطرح الإسلامي المعاصر للحوار بين الحضارات يأتي بمثابة بديل ودعوة لإعادة تشكيل العلاقات الدولية بشكل مختلف تمامًا، وتعبيرًا عن الاعتقاد بإخفاق الأساس السياسي–القانوني الذي أقيم عليه عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، والذي افترض الرشادة والانضباط الطوعي في إرادات القوى السياسية الكبرى، وللتعبير بوضوح عن الحاجة إلى نوعية جديدة من المعالجات لقضايا العلاقات الدولية التي أفرزتها نهاية الحرب الباردة، معالجات تتواءم مع الأسس القيمية للإسلام وحضارته؛ لتحقيق توافق عالمي في الآراء لإقامة نظام جديد في الألفية القادمة، على أساس الإيمان والقيم المعنوية والأخلاقية المشتركة بين الحضارات المعاصرة.

فالحوار بين الحضارات –بهذا– من ناحية أولى ليس دعوة لمجاراة الواقع أو حتى لإدخال تعديلات طفيفة عليه، بل هو مطالبة بتغيير الأسس والجذور التي يصدر عنها هذا الواقع، وهو من ناحية ثانية ليس هدفًا نهائيًا أو أمرًا مطلوبًا لذاته، إنما هو طريق وعملية جديدة مدعو إليها لغيرها: لإعادة بناء النظام العالمي.

في الفكر الحضاري الإسلامي لم يبدأ الأمر انفعاليًا، فبالإضافة على تجذر الروح الحوارية في الإسلام وحضارته، فإن الكثير من المفكرين المحدثين والمعاصرين رأوا مبكرًا أن الأزمة التي يمر بها العالم لا مخرج منها إلا من خلال "حوار بين الحضارات"، أعلن ذلك منذ عام 1970 المفكر الفرنسي المسلم "روجيه جارودي"، في كتاب بهذا العنوان: "في سبيل الحوار بين الحضارات".

إن صحوة الفكر الإسلامي وانبعاثة الأمة التي برزت مظاهرها في الربع الأخير من القرن الميلادي المنصرم، واجهت –في مقابل دعوة الحوار هذه– موجة من التهييج والتشويه، باسم الغضب الإسلامي والخطر الأخضر (برنارد لويس: الخطر الإسلامي)، تقابلها دراسات منصفة حول أسطورية وخرافية هذا الخطر أو التهديد (جون اسبوزيتو: التهديد الإسلامي: حقيقة أم أسطورة، فريد هاليداي: الإسلام والغرب: خرافة المواجهة).

لكن الأمر أخذ شوطا وشططا بعيدا منذ العام 1993م، حين طل الأمريكي صاموئيل هانتنجتون بمقالته المقررة والداعية إلى "صدام الحضارات"، والمستنفرة لساسة الغرب لإعلان الحرب الحضارية على الحضارات الأخرى سيما حضارة الإسلام، وإلى حصر الإسلام وحضارته وعالمه ضمن حدود دامية تحول دون انسياح خطر الإسلام على الغرب: (صاموئيل هانتنجتون: صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي). وكان الرد الأنسب هو إبراز الوجه الحقيقي لحضارة الإسلام، المتمثل في القيمة التعارفية كمقصد أعلى، والوسيلة الحوارية كقيمة وأداة جامعة.

إن الحوار بين الحضارات ينهض على مبادئ إنسانية لا تتبدل ولا تتحول والتي من الضروري القبول بها كأساس لمضي العملية الحوارية من قبيل: التنوع البشري، الكرامة الإنسانية، المساواة الأصيلة وعدم التمييز الخَلقي أو العنصري، تنوع مصادر المعرفة، التغاير الثقافي...إلخ. وكذلك مبادئ تعد مستلزمات ترتبط تلقائيًا بالقبول بهذه المنطلقات من قبيل: الاحترام المتبادل لهذه الحقائق أو الحقوق، التسامح في شأن الخصوصيات، نبذ محاولات الهيمنة الأحادية، التمسك بمبادئ العدالة والإنصاف والسلام والتضامن، واعتماد الحوار والتفاهم المتبادل والتصدي للمذاهب الصدامية، والسعي لتعزيز القيم العالمية المشتركة وتحديد

التحديات الإنسانية المشتركة، والتأكيد على مشاركة الشعوب والأمم في صنع القرار محليًا ودوليًا... كل ذلك بغية إيجاد أرضية مشتركة بين مختلف الحضارات وداخلها.

إن هذا الحوار في طرحه الجدي يشترط التزام "الدول" و"الأمم والحضارات" بالأهداف التي تعزز القيم الإنسانية كقاسم مشترك بين الحضارات، والتركيز في الحوار على الموضوعات المعاصرة والحد من آثار "النزعة التاريخية"؛ أي التي تبرز الماضي الصدامي أو الصراعي للحضارات. وكذلك يشترط التكافؤ بين الإرادات. ويفترض بالتالي ضرورة تجاوز الأوزان النسبية الواقعة بين قدرات الكيانات العالمية أو الحضارية القائمة.

إن العالم برمُّته يمرّ بنوبة عاصفة من الأزمات المتراكبة ذات الأصول والامتدادات الحضارية– الثقافية، وإن هذا العالم الذي يضم في كنفه عدة حضارات كبرى متمايزة –على رأسها حضارتا الإسلام والمسيحية أو الإسلام والغرب– في حاجة ماسّة لمراجعة الأسس التي قام عليها في المرحلة الأخيرة، وإعادة تركيبها بإحلال ما هو قيميّ خُلقيّ معنويّ واقعي محل ما هو براجماتي سياسي محض، مع إضافة وسيلة جديدة لم يعرفها القانون الدولي بهذا الشكل، ولعلها تكون الأجدى، وهى وسيلة "الحوار"، ليس بين الدول فقط على ما عُهد في المواثيق الدولية من آليات التفاوض والوساطة والمساعي الحميدة .. الخ، إنما "الحوار بين الحضارات": بين الشعوب والمجتمعات والمنظمات وبين السَّراة من صفوات الأمم. إن هذا هو السبيل نحو التقارب بين الشعوب ومن ثم بين الدول، وإزالة أسباب سوء التفاهم القائمة على الفهم الأحادي من بعيد، ودعم الخوض في حوار جِدّيّ من منطلق المشترك الحضاري والإنساني .

المصادر:

1- محمد عمارة: التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية (القاهرة: دار النهضة مصر، 199): سلسلة في التنوير الإسلامي (8).

2- د.سيف الدين عبد الفتاح، مدخل القيم: إطار مرجعي لدراسة العلاقات الدولية في الإسلام، (في): د.نادية محمود مصطفى (إشراف): العلاقات الدولية في الإسلام، الجزء الثاني، (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1419هـ/ 1999).

3- زكي الميلاد، من حوار الحضارات إلى تعارف الحضارات، مجلة الكلمة (تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث)، العدد (36)، السنة التاسعة، صيف 2002م / 1423هـ).

4- د.محمد رأفت عثمان، الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الإسلام، (بيروت، دار اقرأ،1982).

5- أحمد شلبي، العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين في مجالات السلم والحرب: موسوعة الحضارة الإسلامية، (القاهرة: مكتبة النهضة، 1994).
6- سيد قطب، في ظلال القرآن، تفسير سورة الحجرات، ط الشروق.
7- المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو، الكتاب الأبيض حول الحوار بين الحضارات [بمناسبة إعلان سنة 2001 "سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات"]، (منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة)، 1422 هـ / 2002م.
8- روجيه جارودي، من أجل حوار بين الحضارات، ترجمة: ذوقان قرقوط، (بيروت: دار النفائس، 1990).
9- صامويل هانتنجتون، صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، (القاهرة: دار سطور، 1998).